جنى نصر الله *

مخيم شاتيلا: ذاكرة الحرب والتهميش

يروي هذا التحقيق قصة مخيم شاتيلا منذ تأسيسه في أوائل خمسينيات القرن المنصرم حتى اليوم، ويسرد ما حل به من نكبات في أثناء الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ – ١٩٨٢)، ولا سيما مجزرة صبرا وشاتيلا، وخلال الحرب على المخيمات (١٩٨٥ – ١٩٨٧)، ويحاول اكتشاف التغيرات البشرية والاجتماعية التي طرأت عليه جرّاء ذلك كله. ولا يكتفي هذا التحقيق باستحضار تاريخ المخيم فحسب، بل يرصد أيضاً، الحياة اليومية للناس فيه، ومشكلاتهم وحاجاتهم، وتطلعات أهله، وأحلام الشبان في أزقته.

تسير ابتسام ببطء، تتمشى من منطقة الدنا في اتجاه مخيم شاتيلا عبر سوق صبرا كما لو كانت في رحلة سياحية. ابتسام هي دليلتنا إلى المخيم الذي نصحنا أهله من الفلسطينيين بعدم التجوال فيه منفردين كي لا نتوه في أزقته. ومع أن ابتسام تقوم بهذه الرحلة مرتين على الأقل في اليوم الواحد، إذ إنها تقطن في المخيم، وتعمل في المؤسسة الوطنية للرعاية الاجتماعية في الدنا، إلاّ إنها لا تبدو على عجلة من أمرها، فالرحلة تشكل لها استراحة قصيرة من ضغط العمل والخروج عن الروتين حتى لو كان البديل روتيناً آخر وتجوالاً بين أفخاذ الدجاج وشرائح اللحم المعلقة في الهواء الطلق والذباب الذي يحوم حول عربات السمك النيء. تستطيع ابتسام أن تسير في هذه الناحية مغمضة العينين على الرغم من جميع المعوقات التي تصادفها في دربها من أكياس نفايات وحفر ملأى بالمياه الآسنة وقطط وكلاب شاردة. تتقمص ابتسام شخصية الدليل السياحي، وتمسك بيد من ترافق كي تجنبه أفخاخ الطريق الكثيرة والمتنوعة، وتبرر اختيارها هذا الطريق إلى مخيم شاتيلا، على الرغم من وجود طريق آخر أكثر رحابة واتساعاً ونظافة، بأنها تسدي خدمة لمن يرافقها بتعريفه إلى سوق صبرا.

تلقي ابتسام التحية على جميع مَن تصادف، فهي تعرف الجميع هنا، وهي ابنة هذا المخيم ومن سكانه الأصليين. تصادف صديقات لها يعملن في مؤسسة بيت أطفال الصمود، وتسألهن عن أسباب تسكعهن في الشارع في أثناء دوام العمل، فتجيب إحداهن: "عم نكزدر، عم نشم هوا نظيف"، ويضحكن جميعهن. إنها طرفة: هواء نظيف في مخيم شاتيلا! لا يمكن لعاقل أن يصدق ذلك. ففي المخيم يكاد المرء يعدل عن فكرة التنفس لأن الروائح الكريهة المنبعثة من المكان لا تشجعه على ذلك إطلاقاً،

(*) صحافية لبنانية.

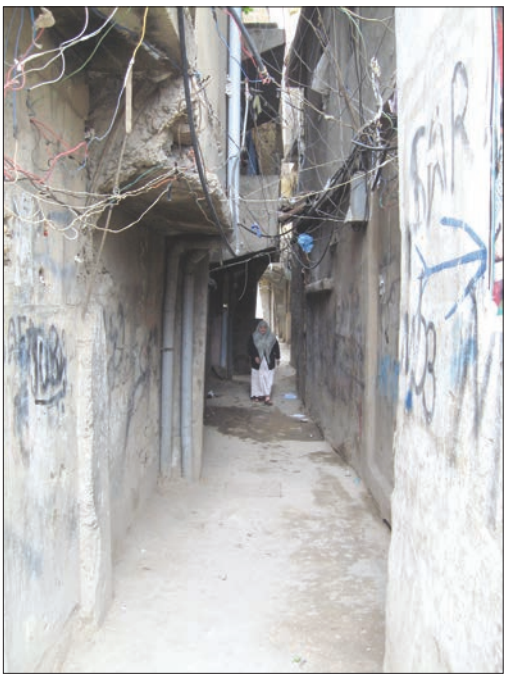

أزقة البؤس
تصوير: غَلَس شرارة

واحتمال إصابته بأي من الجراثيم التي تملأ الفضاء وارد بشدة.

تقف ابتسام فجأة في منتصف الطريق لتقول: "هنا يبدأ مخيم شاتيلا." هذه الـ "هنا" بنبرتها الحاسمة تشكل وحدها الحد الفاصل بين محلة صبرا ومخيم شاتيلا. إنها الحدود التي يستحيل أن يكتشفها أي زائر من تلقاء نفسه لشدة تشابه المنطقتين وتداخلهما، لا بل يستحيل أن تحفظ ذاكرته هذه الحدود الوهمية مهما تتكرر زياراته للمكان. ولعل هذا ما يشكل أحد أسباب الخطأ الشائع في اعتبار صبرا مخيماً أيضاً، علماً بأنها ليست كذلك، وإنما هي منطقة محاذية للطريق الجديدة، لكنها ستلتحم لاحقاً بمخيم شاتيلا، وستوحدهما دماء الشهداء التي سالت بغزارة في إحدى أبشع المجازر وأشهرها، مجزرة صبرا وشاتيلا التي نفذها الإسرائيليون وقوى لبنانية في سنة ١٩٨٢.

مخيم شاتيلا نسخة مكررة عن صبرا، لا بل هو امتداد لها. والعكس صحيح في حال دخلت إلى شاتيلا من ناحية محطة الرحاب، أي من ناحية الجنوب، فعندها تصبح صبرا امتداداً لمخيم شاتيلا: الفوضى والإهمال؛ الأوساخ والنفايات؛ المياه الآسنة؛ الروائح الكريهة المنبعثة من كل حدب وصوب؛ عربات الخضروات تزاحم المشاة وتعوق إمكان تنقّلهم في الشوارع التي تضيق أساساً بناسها؛ بضائع رخيصة تتكدس على ما يُفترض أن يكون رصيفاً؛ باعة يطلقون العنان لآلات تسجيل مزودة بمكبرات صوت لترويج بضائعهم، وهي تقنية جديدة يلجأ إليها هؤلاء لإراحة حناجرهم على الأرجح؛ عاطلون عن العمل يقتلون الوقت بتدخين النارجيلة وشرب القهوة فيما يشبه مقاهي الرصيف المحاطة بشرائح اللحم المتدلية في الهواء الطلق، وفي محاذاتهم مطاعم الفول التي تستقبل الزبائن على طاولات نُصبت في وسط الشارع الذي عليه أن يلبي الحاجات كلها، وتنافسها مناقل شي اللحم والدجاج وأسياخ الشاورما لمَن لا يرغب في أن يثقل على معدته بأطباق الفول.

أنت في شاتيلا، في هذه المنطقة المنخفضة التي تتدفق المياه إليها من المناطق المجاورة، وخصوصاً في فصل الشتاء، فتتحوّل شوارع المخيم وأزقته إلى بحيرات صغيرة ومستنقعات تتجمع فيها المياه الآسنة بسبب ضعف بُنية شبكة الصرف الصحي وازدياد عدد السكان في المخيم والأحياء المجاورة له.

أنت في شاتيلا، صورة كبيرة للرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات ترتفع عالياً، متجاوزة أشرطة الكهرباء المتشابكة والمتدلية بكثافة. مشهد سيتكرر في كل زقاق وزاروب في مخيم شاتيلا. صور للشهداء، وما أكثرهم، وشعارات وشرائط كهرباء متدلية فوق رؤوس السكان وعلى شرفات بيوتهم ونوافذها، الأمر الذي يهدد حياتهم بالخطر. ولا تكتمل سوريالية المشهد إلاّ مع نافورة المياه التي تشكلت من قسطل مياه "مفزور"، والتي يلامس رذاذها شرائط الكهرباء المكشوفة. "إنها مهزلة مخيم شاتيلا"، كما تصفها جمال التي وصلت إلى المخيم قبل عشرين عاماً، أي أنها ليست من سكانه

الأصليين، بل من الفلسطينيين الذين وفدوا إليه على مر الأعوام من المخيمات الأُخرى.

يواجه الناس في مخيم شاتيلا أخطاراً محدقة: المياه تكاد تلامس شرائط الكهرباء غير المحمية بعازل بلاستيكي؛ الأبنية لا تقوم على أساسات متينة؛ المياه ملوثة. لكن الناس اعتادوا هذا الواقع وتعايشوا معه إلى حد ما عاد يلفتهم. وماذا عساهم أن يفعلوا بعدما أُسقط في أيديهم؟ وما فائدة الشكوى ممّا لم يجد طريقاً إلى الحل حين كان سكان مخيم شاتيلا فلسطينيين فقط؟ فكيف الحال بعدما أقامت في المخيم اليد العاملة الرخيصة من مختلف الجنسيات، وبلغت الكثافة السكانية أضعاف ما كانت عليه، إذ بات هناك أكثر من ١٧,٠٠٠ نسمة يعيشون في أقل من كيلومتر مربع واحد لا يتجاوز عدد الفلسطينيين بينهم ٨٢١٢ فلسطينياً؟[١] ما عاد مخيم شاتيلا يخدم وظيفته الأصلية: مكان لإيواء اللاجئين الفلسطينيين، وإنما أصبح مرتعاً للفقراء والمعدمين والبائسين، ومكاناً يُطبق على أنفاس قاطنيه بعدما أوى إليه العمال، واستوطنه المشردون والباحثون عن الرزق والمهمشون من سوريين ومصريين وسريلانكيين وفيليبينيين وهنود، حتى النَّوَر وجدوا موطئ قدم لهم في هذه الرقعة الضيقة يشاركون فيها الفلسطينيين الهواء الذي يتنفسون، ويقاسمونهم الأمتار القليلة التي حُشروا فيها بصيغة الموقت قبل ٦٢ عاماً. توافق جميلة شحادة مسؤولة بيت أطفال الصمود في مخيم شاتيلا على أنها مسؤولية أبناء المخيم الذين أجّروا بيوتهم لمَن هم من خارج أبنائه، لكنها الضائقة المادية التي تفرض شروطها وتسيِّر حياة الأهالي في مخيم البؤس والفقر والحاجة.

أطفال المخيم
تصوير: غَلَس شرارة

تصوير: غَلَس شرارة

اثنا عشر شادراً

بدأت الحكاية باثنتي عشرة خيمة نُصبت وسط حقول الصبار في منطقة مهجورة في المدخل الجنوبي للعاصمة بيروت من أجل إيواء مئات اللاجئين الفلسطينيين الذين توافدوا في سنة ١٩٤٨

إلى المنطقة آتين من عمقا ومجد الكروم والياجور في الجليل الأعلى شمال فلسطين. ولم يكن هناك حاجة إلى أكثر من هذا العدد القليل من الشوادر التي قدمها الصليب الأحمر الدولي الذي رعى شؤون اللاجئين قبل أن تتولى وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا) هذه المسؤولية.

اثنتا عشرة خيمة قماشية كانت ستفي بالغرض لأن اللاجئين لا ينوون الإقامة الطويلة أو الدائمة، وإنما سيعودون قريباً إلى ديارهم كي يقيموا مجدداً بين حقول الزيتون، ويهتموا بالأرزاق، ويحصدوا المواسم بعدما تركوا الأشجار مثقلة بحمولتها. سيعودون وسيوضبون الخيم ويعيدونها إلى الصليب الأحمر الدولي شاكرين له حسن اهتمامه بهم. سيعودون كي يفلحوا الأرض مجدداً ويعوضوا الخسارة التي أصابتهم جرّاء إهمال موسم الحصاد في سنة النكبة.

نصب آل بشر من مجد الكروم الخيمة الأولى، ثم كانت الخيم الأُخرى لعائلات من آل عثمان من مجد الكروم أيضاً، وآل مرجان من الكابري، وآل زعرورة من صفورية، وآل سعد من البروة. ولن يصل آل شحادة إلى ما أصبح يُعرف بمخيم شاتيلا إلاّ بعد مرور نحو عقد على نصب أول خيمة فيه، إذ حطوا رحالهم في هذا المخيم قادمين من مخيم الجليل في بعلبك في سنة ١٩٥٨.

وشكلت هذه العائلات السكان الأصليين لمخيم شاتيلا الذين انخفض عددهم من ٥٠٠٠ نسمة إلى نحو ٢٠٠٠ نسمة،[٢] بسبب الهجرة والتهجير والحروب المتتالية التي شهدها المخيم بدءاً من الاجتياح الإسرائيلي ومجزرة صبرا وشاتيلا في سنة ١٩٨٢، وانتهاءً بحرب المخيمات خلال الفترة ١٩٨٥ – ١٩٨٧، لتصبح أعداد الذين دُفنوا تحت التراب أعلى من أعداد أولئك الذين يعيشون أشبه بالأموات فوقه.

لقد ألحقت هذه الحروب خراباً هائلاً بمخيم شاتيلا الذي حلّت فيه الأبنية مكان الخيم بعدما طالت الإقامة واستحال العيش داخل الشوادر، وخصوصاً في فصل الشتاء حين كانت تعوم الخيم بالمياه ما لم تسبقها الرياح إلى اقتلاعها. ولأن إقامة الفلسطيني يجب أن تكون موقتة فقد مُنع الأهالي من بناء سقوف لبيوتهم التي استُعيض عنها بألواح الزينكو التي يسهل اقتلاعها لاحقاً، وفقاً لما تقول جميلة شحادة، مشيرة إلى أن هذه الحجة كثيراً ما ترددت على مسامعها منذ الصغر. وفي الواقع، لم يكن في مخيم شاتيلا بيوت بالمعنى المتعارف عليه، وإنما غرف صغيرة، تقطن كل عائلة في واحدة منها، بينما المراحيض مشتركة. واستمر الوضع على حاله حتى الستينيات من القرن المنصرم، قبل أن يُسمح للفلسطينيين ببناء بيوت شرعية بسقوف ومراحيض. وفي أي حال، وأياً تكن طبيعة المساكن، فإن ٩٠٪ منها دُمّر (كان عددها ٦٠٠ مبنى تقريباً)[٣] جزئياً أو كلياً خلال الحروب المتتالية التي تعرض لها المخيم، الأمر الذي جعل أهاليه يقيمون خارجه فترات طويلة، ومنهم مَن هاجر من لبنان نهائياً، ومنهم مَن تهجّروا إلى وادي الزينة وأمكنة أُخرى، ولم يعودوا إلى شاتيلا إلاّ في مطلع التسعينيات، علماً بأن ترميم ما تضرر لم يشمل سوى مربع صغير بسبب الضائقة المادية وعدم تكفل الأونروا بهذا الجانب. أمّا منظمة التحرير فاكتفت بتأمين عدد من المباني على أرض اشترتها داخل المخيم لإيواء مهجري تل الزعتر.

وإلى جانب سكان المخيم الأصليين، وصلت إليه مئات العائلات الفلسطينية التي كانت تقيم في بيروت، والتي تركت بيوتها الموقتة في إثر توجّه الحكومة اللبنانية إلى حلّ أزمة المهجرين أصحاب البيوت الأصلية. وكان من شأن هذا الإقبال الكبير على المخيم وارتفاع الطلب على شراء الشقق التي كانت تُباع بأسعار زهيدة أن فُتح الباب واسعاً أمام البناء العشوائي، فاختفت الساحات واتخذ التمدد السكاني شكلاً عمودياً يقوم على أساسات ضعيفة، الأمر الذي أحدث خللاً في البنية التحتية المفقودة أصلاً، في حين أدى اكتظاظ المباني إلى تضخم سكاني كبير على بقعة جغرافية صغيرة، أي بنسبة ٠,٠٧٦م^{٢} للفرد الواحد. فمساحة المخيم الذي يتبع،

إدارياً، محافظة جبل لبنان، وبلدياً، بلدية الغبيري، تبلغ ٣٩,٥٦٧م٢، قسم منها مُستأجر لمصلحة الأونروا لـ ٩٩ عاماً، والقسم الآخر تملكه عائلات فلسطينية، علماً بأن ملكية الأرض في الأصل تعود إلى اللبناني عبد الله صعب من بلدة الشويفات، والذي كان مغترباً في البرازيل آنذاك، وكان وكيله في لبنان سعد الدين شاتيلا الذي سُمّي المخيم على اسمه، مع أن هناك مَن كان يرغب في أن يسميه "مخيم المجاهدين".

يقع مخيم شاتيلا عند الطرف الشرقي للمدينة الرياضية جنوبي مدينة بيروت، ويمتد من مدرسة أريحا في موازاة حي فرحات شرقاً، وسينما الشرق المقفلة شمالاً، فالحي الغربي والمدينة الرياضية غرباً، وشارع صبري حمادة والحرش جنوباً. لكن ثمة مَن يعتبر أن منطقتَي الحرش والحي الغربي لا تدخلان في نطاق المخيم، إذ إن الأونروا لا تعترف بهما ولا تشملهما خدماتها، وهو ما يجعل مساحة المخيم الفعلية لا تزيد على ٢٠,٠٠٠م٢.

وفي أي حال، فإن مساحة المخيم كانت تتسع وتتقلص بحسب الأوضاع. وعلى الرغم من أن مساحته لم تتغير منذ نشأته حتى سنة ١٩٦٩، إلاّ إنه ما لبث أن توسع وامتدت رقعته كي تشمل مناطق صبرا والدنا والداعوق حتى حدود منطقة الطريق الجديدة، ولتصل إلى المدينة الرياضية ومنطقة الحرش بكاملها وحي عرسال، بدءاً بالسفارة الكويتية إلى قصر صبري حمادة على طريق المطار. لكن هذه المساحة تقلصت ١٠٪ بعد إقدام الجهات اللبنانية المختصة على شق طريق يفصل بين المدينة الرياضية والمخيم، فتشكل عقب ذلك ما يُعرف بالحي الغربي الذي هُجر سكانه ومُنعوا من العودة إليه بعد سنة ١٩٩٠، جرّاء تعرضه للدمار شبه التام خلال حرب المخيمات التي شكلت محطة فاصلة دخل المخيم معها مرحلة جديدة على جميع الصعد الأمنية والسياسية والإنسانية والاجتماعية والحياتية.

خريطة تبيّن الأحياء والمعالم الداخلية

إعداد: حسن باكير؛ تنفيذ: عمر الشريف

حليف الأمس جلاد

بدأت حرب المخيمات في سنة ١٩٨٥ بقرار سياسي واضح، وهي لم تكن وليدة حادث فردي كما يؤرَّخ دائماً للحروب في لبنان والعالم العربي. صحيح أن الحادث وقع، لكنه اعتُبر الذريعة التي أطلقت حرباً ضروساً غير متكافئة بين حركة "أمل" والفلسطينيين استمرت من أيار/مايو ١٩٨٥ حتى تموز/يوليو ١٩٨٨، استغلت خلالها حركة "أمل" الانقسام الذي وقع داخل "فتح" حين انشقت عليها "فتح الانتفاضة" بقيادة أبو موسى، فركزت حملتها على عرفات والعرفاتيين تحت شعار "لا عودة بأوضاع لبنان إلى ما كانت عليه قبل حرب ١٩٨٢." والمقصود هنا تحديداً عودة حركة "فتح" إلى المخيمات وبسط سيطرتها على المناطق اللبنانية، علماً بأن تأثيرها كان تقلص بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان في سنة ١٩٨٢، وخروج قيادات منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت إلى تونس. والمفارقة أن هذه الحرب انتهت بما عُرف بـ "اتفاق دمشق"، أي أن سورية رعت رسمياً، وفي العلن، اتفاقاً على إنهاء حرب كانت المحرك الأساسي لها والداعم الرئيسي لحركة "أمل" في افتعالها ثم خوضها تحت إشرافها غير المعلن. ومن نافل القول، أنه كان لسورية حساباتها الخاصة وخلافاتها مع عرفات، وقد أرادت تصفية هذه الخلافات نهائياً في لبنان التي رغبت دائماً في العودة إليه في كل مرة تُجبر على الخروج منه. وكان الاجتياح الإسرائيلي في سنة ١٩٨٢، فرض خروجها آنذاك.

بدأت الحرب إذاً بحادث "فردي" وقع في أيار/مايو ١٩٨٥، وما لبثت ميليشيات حركة "أمل" أن اقتحمت بعض أحياء صبرا ومخيم شاتيلا، وقامت باعتقال جميع العاملين في مستشفى غزة، وساقتهم مرفوعي الأيدي إلى مكتب الحركة في أرض جلول، ومنعت الهلال الأحمر الفلسطيني والصليب الأحمر وسيارات الأجهزة الطبية من دخول المخيم، وقطعت إمدادات المياه والكهرباء عن المستشفيات الفلسطينية. جرى ذلك في رمضان، وهو شهر الصيام لدى المسلمين، فأُطلق اسم "حرب رمضان" على الجولة الأولى من المعارك، واندلعت الاشتباكات في أطراف مخيم شاتيلا ومنطقتَي صبرا والداعوق الملحقتين عملياً بالمخيم، وانتهت هذه الجولة بوقف لإطلاق النار عقب يوم قتال عنيف، واتفق الطرفان على تموضع اللواء السادس في الجيش اللبناني عند أطراف المخيم بصفته قوة فصل بين الطرفين، لكن هذا اللواء كان عملياً طرفاً في الحرب التي خاضها ضد الفلسطينيين إلى جانب حركة "أمل"، وخصوصاً أنه انشق على الجيش بعد انتفاضة ٦ شباط/فبراير ١٩٨٤.

جولات وصولات وهُدنات سرعان ما كانت تنهار فتُستأنف الاشتباكات التي استخدم فيها اللواء السادس جميع أسلحته الثقيلة. سقطت منطقة الداعوق الواقعة بين حي صبرا ومخيم شاتيلا أولاً، ولم تكن مساحتها تتجاوز بضعة أمتار مربعة، وشُرد الفلسطينيون المقيمون فيها والبالغ عددهم ٣٠٠٠ نسمة بعدما سُويت منازلهم بالأرض. صحيح أن حركة "أمل" واللواء السادس لم يتمكنا من اقتحام مخيم شاتيلا، إلاّ إن القصف المدفعي من مختلف العيارات المتوسطة والثقيلة طاول جميع مبانيه ودمر ٨٥٪ منها وفقاً لما قدّر المهندسون العرب آنذاك.[٤]

الحرب على بشاعتها وقساوتها ودمويتها كانت أقل وطأة على الفلسطينيين من الحصار الذي فُرض على أبناء المخيم طوال ستة أشهر. ولعل أبلغ تعبير عن يوميات الحصار الطويل جاء على لسان أحد المسنين الذي وصفه بالموت البطيء قائلاً: "كنا نموت من الجوع." انقطعت جميع مقومات الحياة عن المخيم: لا ماء، لا طعام، لا حليب للأطفال، لا دواء، لا علاجات للجرحى، لا كهرباء بطبيعة الحال، لا شيء... فقط حصار مر وقاتل. نفدت المؤن بسرعة، وخصوصاً أن المخيم لم يكن مستعداً لهذه الحرب التي جاءته على غفلة. وما كان متوفراً إمّا استهلك، وإمّا استحال الوصول إليه بعدما هجر الأهالي بيوتهم التي كانت عرضة لقصف مركز. كانوا مختبئين جياعاً في الملاجئ، بينما الطعام متوفر

في بيوتهم التي ستتحول إلى ركام خلال أيام، وستُطحن المواد الغذائية في باطنها. هكذا، كانت حياة من نجا من القصف المركز مهددة بالموت جوعاً، أو ربما عطشاً، أو بسبب عدم توفر الأدوية والإسعافات اللازمة لمداواة إصابته. مات كثيرون في مستشفى عكا الذي كان يستقبل الجرحى من دون أن يتمكن من معالجتهم، وشاءت المصادفة أن يتم إنقاذ بعض الأطفال من الموت المحقق بعدما أصرت إحدى الممرضات على نقلهم إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت في موكب السفير النرويجي الذي جاء لإنقاذ الأطباء والممرضين وإخراجهم من المخيم. لكن الطبيب الكندي كريستوفر جيانو لم يغادر المخيم طوال فترة الحصار التي أرّخها في كتاب "الحصار: حكاية طبيب عن الحياة والموت في بيروت"[٥] الذي وصف فيه مآسي شعب كُتب عليه خوض جميع أنواع الموت وأشكاله. ومع أن الخروج من المخيم كان متاحاً للنساء، إلاّ إن الأمر لم يكن يخلو من المجازفة التي لا بد منها بعدما أصبح الرجال هدفاً محققاً للاعتقال والقتل بين جولات المعارك المتلاحقة، وخلال فترات الهدنة المتقطعة. كانت النساء يخرجن لإحضار حليب للأطفال وما تيسر من مواد تموينية أُخرى، وكن يخبئن أكياس الحليب والسكر في ثياب أولادهن الذين قلما كانوا يخضعون للتفتيش من دون أن تسلم الجرة في كل مرة.

المقبرة ـ الجامع والمقبرة الجماعية

تحمّل أهالي المخيم وصبروا على الجوع والقهر والظلام والعطش بعدما انقطع التيار الكهربائي كلياً طوال عام كامل (١٩٨٥/١٩٨٦)، وتضررت شبكة المياه بصورة كبيرة حالت دون وصول مياه الشفة إلى البيوت. لكن لا يخفف من وطأة مأساة سوى مأساة أكبر منها، وماذا عساه يكون هذا الأفظع بعد؟ وهل أفظع من ألاّ يستطيع الأحياء دفن أمواتهم؟

هذا ما جرى للفلسطينيين في مخيم شاتيلا. لقد عجزوا، لا بل مُنعوا تحت وطأة القصف من دفن موتاهم. وإذا أرادوا المغامرة، فإنهم لن ينجحوا في إنجاز المهمة لأنهم لا يملكون الأسمنت الذي مُنعوا من إدخاله إلى المخيم. ذهبوا إلى المسجد وحولوا الطبقة السفلية فيه مقبرة يدفنون فيها الشهداء، وخصوصاً أنه كان المكان الأقل عرضة للقصف خلال الحصار. لكن هذا لا يعني أن المسجد لم يُقصف، بل إنه نال نصيبه، وكان بعد كل عاصفة يحتاج إلى ما هو بحجم إعادة الإعمار لا الترميم فقط. لقد تحول الجامع الذي تختلف الروايات بشأن تاريخ بنائه بين سنتَي ١٩٦٠ و١٩٦٥ إلى مقبرة خُصصت لدفن الشهداء، لكنه لم يكن المدفن الوحيد، فعلى بعد ٥٠٠ متر فقط يرقد شهداء مجزرة صبرا وشاتيلا في مدفن جماعي احتضن لبنانيين وفلسطينيين وآخرين معاً، هم ضحايا المجزرة، وأعدادهم غير محددة. قسم يقول ١٥٠٠ شهيد، وقسم آخر يقول أكثر كثيراً وربما ضعف ذلك. لقد انتظر شهداء صبرا وشاتيلا عاماً كاملاً قبل أن يحصلوا على قبرهم الجماعي.

تحولت المقبرة الجماعية التي صارت خارج المخيم إلى مكب للنفايات، أمّا الشارع الذي أطلق عليه سكان شاتيلا اسم شارع المجزرة، فصار شارعاً تجارياً تتكدس فيه البضائع الرخيصة. ولم تبدأ معركة استرجاع المقبرة إلاّ في الذكرى الخمسين للنكبة عندما أطلق مسرح بيروت الذي كان يديره ويشرف على نشاطاته الروائي الياس خوري حملة لتحقيق هذه الغاية. ويروي خوري في مقالة نشرها في جريدة "القدس العربي" أنه "تم تنظيف المقبرة بجرافة، وبُني سور من حولها، لكننا لم نستطع أن نبني نصباً لذاكرة الألم. وعام ١٩٩٩، عندما جاء محمود درويش إلى بيروت، من أجل إحياء أمسيته الشعرية الأولى في المدينة، بعد الخروج الفلسطيني عام ١٩٨٢، ذهبنا كالمتسللين، مارسيل خليفة وسمير قصير وليلى شهيد وأنا، مع شاعر فلسطين الكبير، وقفزنا من فوق السور، كي يضع الشاعر باقة من الورد الأبيض على ضريح لم يُبن بعد، وهو في طريقه إلى مطار بيروت."[٦]

الشهداء المنسيون
تصوير: غَلَس شرارة

لقد مرت ٢٨ عاماً على ارتكاب هذه المجزرة التي لا يزال اللسان يعجز عن وصف بشاعتها وفظاعتها. هي الإرث الثقيل الذي يحمله مخيم شاتيلا؛ إرث لا تزال بصماته دامغة في الوجوه والأرواح، في الأزقة والشوارع، في مقبرة جماعية يناجي شهداؤها زملاءهم في الشهادة في حرب المخيمات التي شهدت مجازر ممرحلة على امتداد ثلاثة أعوام. لكن أيهما كان الأفظع؟ وهل يتلاءم استعمال أفعل التفضيل مع كلمة مجزرة؟

كانت مجزرة صبرا وشاتيلا فظيعة، كانت الأفظع في عصرها وزمانها وظروفها. كانت مجزرة ارتكبتها القوات اللبنانية بالسر طوال ثلاثة أيام هي الخميس والجمعة والسبت ١٦ و١٧ و١٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢، وأمعنت فيها اغتصاباً وقتلاً وتقطيعاً للجثث. وهذه المجزرة التي كان معظم ضحاياها من النساء والأطفال والشيوخ، والتي امتدت إلى مستشفيَي عكا وغزة القريبين فشملت طواقمهما من الممرضات والأطباء، علاوة على عائلات لبنانية تقيم في صبرا، لم ينفضح أمرها إلاّ صباح السبت. الأطراف المتهمة أربعة: القوات الإسرائيلية؛ "القوات اللبنانية؛ "الكتائب"؛ قوات سعد حداد. غير أن هذه الأطراف كلها ادعت أن لا علاقة لها بهذا الموضوع، وحمّل كل منها المسؤولية إلى سواها.

حاول الفلسطينيون الناجون من المجزرة إثبات الجرم تمهيداً لمحاكمة المجرمين، وبعد أن بثت هيئة الإذاعة البريطانية في حزيران/يونيو ٢٠٠١ فيلم "المتهم" الذي تناول احتمال محاكمة شارون كمجرم حرب، قام محامون متضامنون مع ضحايا المجزرة بتحرك في بلجيكا استناداً إلى قانون "الاختصاص العالمي" الصادر في سنة ١٩٩٣، والذي يسمح بملاحقة مجرمي الحرب.

ورفعت سعاد سرور المرعي، الناجية من المجزرة، مع أسر ٢٨ شخصاً من الضحايا دعوى أمام إحدى محاكم بلجيكا لمحاكمة شارون، لكن لم يمر عامان على إقامة الدعوى حتى أقر البرلمان

تصوير: غَلَس شرارة

البلجيكي في سنة ٢٠٠٣ نصاً يحدّ من نطاق قانون "الاختصاص العالمي" في مجال جرائم الحرب، الأمر الذي أتاح إلغاء الدعاوى القضائية المرفوعة منذ سنة ٢٠٠١، ضد رئيس الحكومة الإسرائيلية أريئيل شارون. ويسمح هذا النص ـ لكن بشروط ـ للحكومة البلجيكية بإحالة أي دعوى مقامة ضد مسؤول أجنبي متهم بجرائم حرب، أو جرائم ضد الإنسانية، أو جرائم إبادة، إلى بلد المتهم!

تخرج من مخيم شاتيلا، وتشعر بأن شيئاً ثقيلاً يطبق على صدرك. تسير ببطء شديد، ترغب في الهرولة لكنك لا تقوى على ذلك. تدرك حينها لماذا كانت ابتسام تسير ببطء. ■

المصادر

(١) محمود عبد الله كلَّم، "صبرا وشاتيلا: ذاكرة الدم" (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، ٢٠٠٣)، ص ٢٦ – ٢٨.

(٢) محمود عبد الله كلَّم، "مخيم شاتيلا: الجراح والكفاح"، سلسلة المخيمات الفلسطينية في لبنان (بيروت: المنظمة الفلسطينية لحق العودة/ثابت، ٢٠٠٨)، ص ٢٦ – ٢٨.

(٣) زهير هواري، "الفلسطينيون في لبنان: وقود الثورة أم رماد السلام: شاتيلا: الأحياء والأحياء شهود على أنقاض الحروب المتلاحقة"، "السفير"، ١٩٩٤/٤/٢.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) Christopher Giannou, *Besieged: A Doctor's Story of Life and Death in Beirut* (London: Bloomsbury, 1991).

(٦) الياس خوري، "ماذا تعني الذكرى؟" "القدس العربي"، ٢٠٠٨/٩/١٦.